

الأنوار في القرآن

أطلق الله النور في كتابه على عدة أشياء، أطلقه سبحانه على نفسه، وأطلقه على نبيه صلى الله عليه وسلم، وأطلقه على القرآن، وأطلقه على الهداية، وأطلقه على نور الهداية والإيمان.

فالنور في القرآن على خمسة أنحاء: نور الرحمن، ونور القرآن، ونور النبي العدنان صلى الله عليه وسلم، ونور الإيمان، ونور الأكوان، ولو أن أحد الباحثين كتب رسالة يتتبع فيها النور في كتاب الله وسنة رسوله، وأثر ذلك عند المسلمين لخرج كتابا حافلا لم يؤلف مثله في الإسلام.

ونحن في هذا العصر الذي اشتدت فيه الظلمات : ظلمات الكفر والإلحاد، ظلمات الظلم والاعتصاب، ظلمات العدوان وانتهاك المقدسات لفي أحوج الحاجة إلى معرفة النور الذي تكلم عنه الله ورسوله حتى نعلم الشيء ونقيضه، وحتى نعلم ما هذا النور وكيف نتبعه ما البرنامج الذي نسير عليه ؟ نفر فيه من الظلمات إلى النور حتى يرضى ربنا عنا، وحتى نتمتع بهذه الخاصية التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم بإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

إن دين الإسلام ذين النور، وقد أطلق الله النور على نفسه في سورة حملت اسم «سورة النور» قال الله تعالى فيها : { اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ أَمْ نَمْسَسُهُ نَارًا نُورًا عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } [النور:35].

وقد اهتدى مكتشف المصباح الكهربائي إلى اكتشافه بعد تجارب عديدة بسبب هذا التشبيه البليغ، حيث لفت التشبيه القرآني لأهمية وجود الزجاج حول المصدر المشع لنشر الضوء.

وفي هذا النور الرحمني يقول الإمام ابن عطاء الله السكندري في كتابه الشهير «الحكم العطائية»: «الكون كله ظلمة وإنه أناره ظهور الحق فيه» وهو يقصد أن الكون من حيث كونه وظهور حسه كله ظلمة؛ لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهوده، ولأنه سحاب يغطي شمس المعاني لمن وقف مع ظاهر حس الأواني.

وإليه أشار الششتري بقوله: لا تنظر إلى الأواني وخض بحر المعاني، لعلك ترائي. فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة: وإنما أناره تجلي الحق به وظهوره فيه، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه جسماً ظلمانياً ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتياً.

فقول الشيخ الكون كله ظلمة إنما هو في حق أهل الحجاب، لانطباع ظاهر الأكوان في مرآة قلوبهم وأما أهل العرفان، فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق، فرأوا الكون نوراً فائضاً في بحر الجبروت فسار الكون عندهم كله نوراً. وهو ما يشير لقول الشاعر:

وإذا لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار.

أما نورانية كتاب الله الكريم القرآن المجيد فقد أثبتها ربنا له في أكثر من آية، قال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157]. وقال تعالى: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: 8]. وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا} [النساء: 174].

فالقُرآن الكريم نور من عدة اعتبارات فباعتبار مصدره فإن مصدره عالم الأنوار والوحي والقدس، ولذلك أمر الله في كتابه أن الإنسان إذا ما أراد أن يتصل بهذا النور أن يمسح نفسه بمسحة النور، فعليه أن يتوضأ والتوضوء من الوضوء والإنارة، وهي العبادة التي يتطهر فيها المسلم من الحدث الأصغر وذلك ليكون حاله مناسباً للنور الذي يريد أن يتلوه.

والقرآن نور من حيث لغته العربية وتهذيبه للغة العرب التي كانت مليئة بالفرائب ووحشي الكلام، وأذكر شعر ابن المطهر الحلي حيث يقارن بين القديم والجديد في لغة العرب، ويظهر من ذلك مدى تهذيب القرآن للغة العرب:

إنها الحيزبون، والدردييس والطخا والنخا والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها حيث تتلى وتشمئز النفوس

أين قولك هذا حديث قديم من مقالك عقنقل قدموس

وألفاظ القرآن نحو 1810 لفظة تمثل جذور الكلمات القرآنية، في حين أن معجم لسان العرب لابن منظور نحو ثمانين ألف مادة أعني جذراً، أي أن جذور القرآن تمثل نحو اثنين في المائة (تماماً 2.25٪) من جذور لسان العرب، والقرآن أصغر نص مقدس، وعدد كلماته نحو 66 ألف كلمة، منها 1620 كلمة لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة، ويقول بعضهم إن الأديب الروسي تولستوي لم يكرر 4 كلمات في كتابه الحرب والسلام، فعد ذلك من بلاغته وتمكنه اللغوي، فإذا صح ذلك، فإن هذا التفرد في القرآن الكريم بهذا العدد الضخم من الألفاظ غير المكررة يكون معجزة بمعنى الكلمة. تضاف إلى وجوه إعجازه التي تخرجه عن نظام كلام البشر.

والقرآن نور من حيث نقله، فقد نقل بالأسانيد المتصلة المتكاثرة التي بلغت حد التواتر الإسنادي والجملي، ولقد أورد ابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات

العشر) أكثر من ألف سند من عصره (القرن التاسع الهجري) إلى القراء العشرة وهم قد نقلوا القرآن ممثلين عن مدن بأكملها كلها يقرأ كما كانوا يقرأون، وهذا ما يسمى بالتواتر الجملي؛ فلأن الناس جميعاً يقرأون القرآن في مدينة معينة بهذه الطريقة وبهذا الأداء فكان هؤلاء القراء مجرد مندوبين عنهم وممثلين لقراءتهم وحافظين لطريقتهم في التلاوة وارتضاهم أهل كل مدينة لما رأوا فيهم مزيد الاهتمام وتمام العلم، فشهدوا لهم جميعاً بذلك.

* * *

مازلنا في الحديث عن الأنوار في القرآن، وقد وصلنا إلى نورانية القرآن الكريم، فالقرآن نور من حيث معانيه، فقد اشتمل على مبادئ عامة تنير الطريق، وتنظم العقل، من تلك المبادئ القرآنية قوله تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} [الأنعام: 164] وقوله سبحانه {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: 179]، وقوله تعالى: {عَقَّا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ} [المائدة: 95]، وقوله سبحانه: {وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ} [النجم: 39]، وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78] إلى آخر ما هنالك من أسس ومبادئ تبين أن الضرر يزال واليقين لا يرفع بالشك، والأمور بمقاصدها ونحو ذلك.

والقرآن نور في مضامينه، فقد وصف الأوجاع في النفس البشرية، وفي المجتمع المسلم، وبين العلاج، وقص القصص، وأثبت العقائد، وأوضح الأحكام، وما فرط فيه ربنا من شيء نسأل الله أن يشرح صدورنا بنور القرآن، والقرآن نور لصاحبه يوم القيامة على الصراط، وسبب في ترقيه في درجات الجنة.

أما نورانية النبي العدنان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، فكان سيدنا محمد بن عبد الله هو ذلك النور الذي ظهر فجأة في جزيرة العرب بمكة ذلك الموضع الذي ضم أول بيت وضع للناس في الأرض، فكان سيدنا محمد هو النور المبين الذي

أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وجاء ليحقق المدينة الفاضلة، فدعا أولاً لتوحيد مصدر تلقي التعليمات.

لقد أقام النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم الدلائل والبراهين على صدق دعوته، تلك الدعوة التي لا يختلف عليها عقلاء الأرض وهي أن الصانع واحد، وينبغي أن يفرد بالعبادة وحده، كما انفرد بالخلق والإيجاد، بنى الاعتقاد السليم في الله والكون والإنسان، كون النظام الاجتماعي الفريد، كون الدولة الإسلامية تنشر الإسلام في شتى بقاع الأرض، أقام حضارة ما زالت قائمة إلى يومنا هذا تباهي حضارات العالم بكما لها ونزاهتها.

وقد أثبت القرآن نورانية النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} [المائدة: 15]، وقال تعالى: {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَيَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأحزاب: 46].

فهو صلى الله عليه وسلم نور ومنير، ولا شيء في أن يعتقد المؤمن بذلك طالما أن الله عز وجل قد وصفه بذلك وسماه نوراً، ولقد ثبت في السنة أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يقولون: إنه وجهه صلى الله عليه وسلم كالقمر [رواه النسائي في الكبرى]، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه عندما حملت فيه أمه: «رأت نوراً أضواء لها قصور بصرى من أرض الشام» [ذكره الطبري في تاريخ، وابن هشام، وصاحب حلية الأولياء].

وأكد أصحابه رضوان الله عليهم أن: «النبي صلى الله عليه وسلم عندما دخل المدينة أضواء منها كل شيء، وعندما مات أظلم منها كل شيء» [أحمد والترمذي وابن ماجه] إلى غير ذلك من آثار وأحاديث تبين أنه صلى الله عليه وسلم كان نوراً، ولا ينبغي أن ننفي أن ذلك النور كان حسيًا فليس هناك ما يتعارض مع أنه صلى الله عليه وسلم كان نوراً ومنيراً، مع أصل العقيدة، كما أنه لا يعارض طبيعته البشرية التي أخبر بها القرآن.

إن المحظور هو نفي البشرية عنه صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا مخالف لصحيح القرآن فقد قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [فصلت: 6]، فالسلامة في ذلك أن تثبت كل ما أثبت الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من حيث نورانيته

وبشريته دون تفصيل وتنظير، كما أن إثبات النور الحسي له صلى الله عليه وسلم لا يتعارض مع بشريته.

ومن المفيد أن نذكر فائدة هنا وهي حديث «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر» فقد حكم المحدثون بأنه حديث منكر وذهبوا إلى وضعه. قال العلامة عبد الله بن الصديق الغماري: «وعزوه إلى رواية عبد الرزاق خطأ لأنه لا يوجد في مصنفه ولا جامعه ولا تفسيره، وقد الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى ج 1 ص 325: «ليس له إسناد يعتمد عليه» اهـ، وهو حديث موضوع جزماً..... إلى أن قال: وبالجملة فالحديث منكر موضوع لا أصل له في شيء من كتب السنة [مرشد الحائر لبيان وضع حديث جابر، للسيد عبد الله بن الصديق الغماري]

ولقد حكم بوضعه أكثر المحدثين كالحافظ الصغاني ذكر ذلك في كتابه الموضوعات، وأقره الحافظ العجلوني على ذلك في كتابه كشف الخفاء.

والحكم بوضع الحديث وعدم صحة نسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس دليلاً على فساد معناه من كل وجه، فمعنى الحديث يمكن أن يكون صحيحاً إذا كانت الأولية في الأنوار فإن ذلك لا يبعد، وعلى أن الأولية مطلقة، فهي ثابتة للقلم وللعرش على الخلاف المشهور، وقد ذكر العجلوني ذلك فقال: «وقيل الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه، أي أول ما خلق الله من الأنوار نوري وكذا باقيها، وفي أحكام ابن القطان فيما ذكره ابن مرزوق عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام. انتهى ما في المواهب [كشف الخفاء].

